تحويل القبلة

عن القدس الى مكة

بقلم شيخ العروبة

الأستاذ أحمد زكى باشا

الفصل الثالث

— ١ —

ما هى الحكمة فى هذا التحويل ؟

رأينا فيما تقدم أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قد أمضى سبعة عشر شهرا وهو حريص على استئلاف اليهود : بتوجهه الى قبلتهم ، وبتذكيرهم نعمة الله عليهم . ولكن شقاوتهم حملتهم على الامعان فى العناد ، وعلى الاصرار فى الضلال . حتى انهم أخذوا يستهزءون به ويقابلونه بالتقريع والتأنيب .

الى أن ضاق صدره . وما هو الا بشر مثل كل الناس ، وان كان بذ جميع الناس بما اختصه الله من المحامد والكمالات .

وصلت به الحال الى ما وصفه الله لنا فى القرآن الكريم بقوله تعالى :

« فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا (١) »

نعم ، إن هذا القول الكريم منصرف إلى عموم أهل الكتاب (اليهود والنصارى) كما يستفاد من نظم السياق فيما قبله وما بعده من الآيات .

لكننا نرى فى موضع آخر من الكتاب المجيد أن الله اختص بهذا المرمى نفس الاسرائيليين ، دون سواهم ، بقوله لنبيه عليه الصلاة والسلام :

« لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين (٢) »

والكلام فى هذه السورة الكريمة موجه الى اليهود ، وإلى اليهود وحدهم .

---

(١) سورة الكهف (١٨ : ٦) (٢) سورة الشعراء (٢٦ : ٣)

فـا هو المعنى الذى تنطوى عليه هذه الآية ، وما هو الامر الجلل الذى يعاتب الله من أجله مصطفاه ؟

تطابق أهل اللغة وجهابذة التفسير على أن «بخع النفس هو قتلها من الغيظ والغضب».

والمعنى على مافى الطبرى «أى فلعلك قاتل نفسك ومهلكها . . . . حزنا وتلهفا ووجدا بادبارهم عنك وإعراضهم وتركهم الايمان بك» وذلك كله من باب الأسف أى الغضب (عن قتادة) أو الجزع (عن مجاهد).

فانت ترى أن الله نظر بعين العطف والحنان الى ما أصاب نبيه المختار من شدة الغيظ والغضب حتى حدثتـه نفسه الشريفة بالبخع ، لعـدم تحقيق ما كان يرجوه من إيمان اليهود بالقرآن .

من أجل ذلك ، عاتبه الله «على حزنه حين فاته ما كان يرجوه منهم» (كما فى الطبرى عن ابن اسحاق) .

وأنت تعلم أن «فوات الرجاء» هو انقطاع الأمل ، وهو اليأس بعينه .

— ٢ —

وقد قدمنا فيما كتبناه عن الصخرة التى فى بيت المقدس (١) «أن هذه الصخرة كانت قبلة المسلمين ، يتوجهون اليها فى صلواتهم ، حينما كان هناك لنبيهم أمل فى استدراج اليهود الى الدين الجديد»

فلما فاته هذا الرجاء (على ماقرره ابن اسحق وأقره الطبرى) حصل فى نفسه الشريفة شىء مثل اليأس الذى أصيب به الرسل من قبله ، كما أشار اليه القرآن الكريم بقول الله تعالى : «حتى اذا استيأس الرسل» (٢) على ما ذكرناه فى المقال الماضى (٣) . ونحن نعزز الآن قولنا هناك بما قرره ابن اسحاق، ثم نؤكده بقول ابن عباس الذى رواه الطبرى وهو «ان المعنى لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم» وبقوله أيضا برواية الطبرى «أيس الرسل من قومهم أن يصدقوهم» .وقد أفادنا ابن جرير «أن اياس الرسل كان من ايمان قومهم» .

وهو تخريج لطيف أبداه الامام الطبرى ، ثم أيده بما جاء عن حبر الأمة (ابن عباس) فى

(١) أنظر «مجلة المعرفة» هذه (ج ٢ ص ١٧٠)

(٢) سورة يوسف (١٢ : ١١٠)

(٣) أنظر «مجلة المعرفة» (ج ٣ ص ٢٩١)

هذا الموضوع ، وهو « أن الرسل كانوا بشراً ضعفوا ويئسوا » . والمعنى أنهم لطبيعتهم البشرية ، قد تولاهم الضعف واليأس .

وعلى هذا المثال ، انتهت الحال برسول الاسلام ، عليه الصلاة والسلام « حين فاته ما كان يرجو منهم » أى من اليهود ، مع شديد حرصه على هدايتهم . ومن أجل ذلك بلغ به الغيظ والغضب درجة اليأس التى جعلته يريد أن يبخع نفسه أى يهلكها ويقتلها . فجاءه العتاب الربانى « على حزنه حين فاته ما كان يرجو منهم » .

وما أظرف اشارة الألوسى ، عند تلميحه الى هذا المعنى بقوله :

« أما معاتبته صلى الله عليه وسلم — فى بعض ما صدره — فليس لنقص فيه ولا لاخلال بالأدب عند فعله . حاشاه ، ثم حاشاه ! ولكن لاسرار خفية ، وحكم ربانية : علمها من علمها ، وجهلها من جهلها » .

وعندى أن فى هذا العتاب تشريعاً للناس فى سبيل احتمال الأذى ، ورياضة لهم على الرضى بما قضى ، وارشاداً الى طريق الأدب لاتباع منهاج الهدى .

فبعد انقطاع ما كان النبى يؤمله ويرجوه من ايمان اليهود به ، تطلعت نفسه الكريمة الى العدول عن بيت المقدس . وما كان له أن يفعل شيئاً أو أن يأتى أمراً بغير الوحى أو الالهام . فكان فى قرارة نفسه « يشتهى القبلة نحو البيت الحرام » (على رأى قتادة) و « يشتهى أن تكون قبلته الى الكعبة » (كما قال البراء بن عازب وقتادة) و « كان يحب قبلة ابراهيم » (على قول ابن عباس) .

— ٣ —

ولماذا كان الرسول الأكرم يتمنى على ربه أن يصرفه الى الكعبة المطهرة ؟

ذلك لأنها :

(١) قبلة أبيه ابراهيم .

(٢) أقدم القبلتين (على قول واحد) .

(٣) أدعى للعرب الى الايمان ، لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم .

(٤) لمخالفة اليهود .

ومن أجل ذلك كان النبي عليه الصلاة والسلام كثيراً ما يردد وجهه الى ناحية العلاء ويصرف نظره فى جهة السماء ، متشوقاً للوحى ، على لسان أخيه جبريل .

فقد كان يقع فى قلبه ويتوقع من ربه أن يحول القبلة الى الكعبة . ولذلك كان يراعى نزول جبريل بالوحى والتحويل (على ماقاله الزمخشرى ثم أبو السعود) .

بل قال لنا قتادة والسدى أنه « كان يقلب وجهه فى الدعاء الى الله تعالى أن يحوله الى الكعبة » .

وذهب الألوسى فى أول الامر الى أن « الظاهر أنه صلى الله عليه وسلم لم يسأل ذلك من ربه ، بل كان ينتظر فقط » . ولكن الألوسى مالبث أن عاد فعرفنا « أنه صلى الله عليه وسلم دعا وسأل التحويل لمصلحة ألهمها ومنفعة دينية فهمها »

ولقد أجاب الله تعالى سؤله وأسعفه بمناه ، فاختار له القبلة التى يحبها ويرضاها لاغراضه الصحيحة التى أضمرها ، وهى التى وافقت مشيئة الله وحكمته (على ماقال الزمخشرى) .

وقد وصف الألوسى هذه القبلة الجديدة بانها « هى التى يرضاها الرسول الاعظم ويشتاق اليها لمقاصد دينية وافقت مشيئة الله وحكمته » .

وقد أشرنا الى هذه الأغراض الاربعة .

— ٤ —

من كل ذلك يتبين لنا :

أولا — أن النبى عليه الصلاة والسلام ، حينما وصل الى المدينة المنورة ، اختار الصخرة التى ببيت المقدس قبلة له والاسلام .

ثانيا — وأن ذلك كان مبنياً على الأمل باستدراج اليهود الى الدين الجديد .

لأن الله خير محض وهو يريد الخير . ولكن غلبت عليهم الشقاوة (الا قليلا منهم) فلبثوا فى غوايتهم وعمايتهم ، بل تغلغلوا فى الأذى والزراية ، وصاروا يعيرون النبى عليه الصلاة والسلام بالصلاة الى قبلتهم بأنه يتوجه الى بيت المقدس .

وعلى ذلك ، فلم ينفع فى اليهود وعظ ولا تذكير (الا من رحم ربك) ولم ينتهوا الى الحق الذى جاء به البشير النذير . وكانت النتيجة أن النبى عليه الصلاة والسلام صار يقلب طرفه فى السماء مراراً وتكراراً عسى أن يأتيه الوحى بصرف القبلة عن بيت المقدس الى

المسجد الحرام . الى أن تم له المرام . فأنزل الله عليه فى القرآن قوله تعالى :

« قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها . فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » صدق الله العظيم .

— ٥ —

ومن أجل ذلك صار المسلمون يقولون عن المسجد الأقصى ، إنه أولى القبلتين .

أما انه ثالث الحرمين ، فظاهر :

لأن الحرم الأول هو المسجد الحرام بمكة المكرمة ، والحرم الثانى هو الروضة الشريفة المطهرة بالمدينة المنورة ، والحرم الثالث هو المسجد الأقصى بالقدس الشريف .

وذلك مستفاد من قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الاقصى ، ومسجدى هذا » . رواه أبو سعيد الخدرى . وقد روى الامام أحمد فى مسنده عن أبى الدرداء قول نبينا عليه الف صلاة والف سلام : « فضلت الصلاة فى المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة ، وفى مسجدى بألف صلاة ، وفى مسجد بيت المقدس بخمسمائة صلاة » .

— ٦ —

ولعل فى هذا كفاية للسائل الكريم ، وبلاغاً للطالب المستفيد . والله يقول الحق ويهدى السواء السبيل . وهو المسئول أن يتولانا برحمته ، وأن يعصمنا من الخطأ والخطل ، وأن يوفقنا لخدمة الاسلام بالبرهان القاطع والبيان الساطع ، عن طريق التحقيق والتدقيق لا عن طريق الأضاليل المختلقة والأساطير الملفقة . وهو حسبى ونعم الوكيل ؟

عن دار العروبة

أحمد زكى باشا